الواقعيـة الفنية

للأستاذ عبد الوهاب محمود

عاشت المدرسة الابتداعية (Ecole Romantique) فى عالم من خيال تتقاذفها صور الكآبة والحنين واليأس، ويشق الاغتراب الروحى طريقه إلى نفوس كتابها، فلجوا بدورهم فى دنيا من ضباب، وسلكوا فى أساليبهم مسلكا تشيع منه الأحزان والمشاعر النفسية القلقة المضطربة. ولعل (هوجو) خير من يمثل هذا المذهب الفنى الأدبى

وكرد فعل لهذه المدرسة التى غالت فى الخيال برزت المدرسة الواقعية (Ecole Realiste) فى ميدان الأدب، وسرعان ما سارت فى هذا الميدان واتجه إليها كثير من الأدباء اتجاها فنيا صادقا يتمشى مع روح الواقعية الحقة بينما سلك آخرون سبيلا ملتوية، لا تمت إلى الواقعية الفنية بصلة. ومن آثارها ذلك الإنتاج الغزير الذى (تقذفه) إلينا الصحف والمجلات، وبخاصة تلك الصحف التى تبغى الكسب المادى. وكثر أنصار هذه الواقعية الحمقاء التى تتجسم بنقل الواقع نقلا (فوتوغرافيا) جافا جامدا كما تتمثل بتلك

يسمح للمريض باسترجاع الذكريات المؤلمة على دفعات. فما لوحظ أن الذكرى المكدرة لا تسترجع أولا وإنما تأتى الأفكار التى ترتبط بهذه الذكرى.. ومنها يتدرج إلى الذكرى المؤلمة حقا. وهكذا فإن المريض لا يواجه ما ينغصه مرة واحدة.. بل يأخذه جرعة جرعة، يضاف إلى ذلك أن وجود المحلل يشجع المريض ويقوى أنيته. فكل اضطراب نفسى له علله مهما كان غموضه فى الظاهر، وعمل المحلل الكشف عن هذه العلل.. ولا يستطيع القيام بذلك إلا من هيئ ليقابل بهدوء كل محتويات الذهن اللاشعورية.. وكان لديه خبرة واقية بطريقة حل الصراع

البقية فى العدد القادم

فائزة على فاضل

اللغة المهزلة حتى ذهب بعضهم إلى الالتجاء للغة العامية (١)، إلا أن حقيقة هذا المذهب الأدبى غير مايرى هذا الفريق؛ فالفنان كما يقول توفيق الحكيم (٢) ليس يحرر تقارير، وإنما هو محرر عواطف. وليست الأمانة المطلوبة منه نقل الأحداث دون المشاعر والعواطف، فالواقعية كما يرى دبهاميل ليست بالواقعية الفوتوغرافية (Réalité phorraphgue) التى لا يخرج عملها عن عمل آلة التصوير التى (كلفت) بالتقاط الواقع بحركة آلية عمياء جافة. ولعل الذى دفعنى إلى كتابة هذه المجالة تلك المسالك السود، التى أخذ يسلكها نفر من كتابنا حتى مسخوا وجه الحقيقة وغدا أدبهم لا يعدو تلك (اللقمة) التى تتربع على مائدة الطعام، أو تلك الصور التى يشيع فيها التشاؤم والرعب من الحياة

الواقعية الفنية لا تبعدنا عن حياتنا — كما يظن — بل هى الواقع الحس قد داعبته أنامل الفنان، وقد يرسم الفنان — الشاعر أو القصاص — صوراً ماثلة فى الواقع، واقعة حقا، وقد لا تكون كذلك كما لا يلزمنا أن تكون تلك الصورة المنقولة صورة سامية حسنة جميلة، بل كل ما يطلبه الفن نقل الصورة نقلا فنيا، وكل ما يطلبه الواقع نقلها بأمانة. وإذا صهرنا مطاليب الفن ومطاليب الواقع — فى بوتقه واحدة — ظهر لنا (الأدب الواقعى الفنى) الذى هو نفسه الأدب المصور المؤثر

ويحضرنى الآن رأى للأستاذ المداوى نشره فى تعقيباته فى عدد الرسالة الفائت (٣) إذ قال: الواقعية ضربان، واقعية أولى ويكون فيها نموذج الشخصية موجودا (بالفعل) فى الحياة، والواقعية الثانية، ويكون فيها نموذج الشخصية موجودا (بالإمكان). ولم يقف الأستاذ المداوى عند هذا الحد، إنما ذهب إلى تعريف الواقعية الأولى فقال (هى نقل مباشر لصور الحياة وطبائع الأحياء، كما هى فى الواقع الحس الذى تلمسه العين وتألفه النفس) ولو وقف الأستاذ عند قوله: (إنها نقل مباشر لصور

---

(١) يرى الأستاذ أحمد حسن الزيات بك أن الاتجاه إلى العامية ناتج عن جهل بعض الأدباء باللغة الفصحى (دفاع عن البلاغة)

(٢) (تحت المصباح الأخضر)

(٣) الرسالة عدد ٩٣٩، السنة الثامنة عشرة

الحياة وطبائع الأحياء) لهان الخطب وما جعل ذلك النقل مقيدا (بما تلمسه العين وتألفه النفس) كما أنه لو احترس الأستاذ فى قوله وقال : (إنها نقل مباشر لصور الحياة وطبائع الأحياء كما هى فى الواقع المحس الذى تلمسه عين الفنان وتألفه نفسه) بدلا من إطلاق (العين والنفس) التى تدعو إلى جعل الفن ضربا من ضروب العبث ، كما يجعل — هذا الإطلاق نفسه — الفنان والرجل العادى فى كفة متساوية من حيث الإحساس (٤) ، أقول لو قال الأستاذ (عين الفنان ونفسه) لسهل الأمر وما دعانا إلى الولوج فى دهاليز الظلمة والجهل ، وهو يقصد الإيضاح والإعلام. ورأى الأستاذ العداوى أيضا يبعث إلينا من جديد تلك الصفعة التى وجهها أفلاطون لفن الشعر ، كما يعيد إلينا صدى العبارة اليونانية التى تقول : (إن الفن تقليد للطبيعة) والتى استغلها أفلاطون نفسه للطعن فى الشعر ، وبودنا لو استطاع الأستاذ أنور العداوى أن يجيب على هذه الأسئلة التى (تقلق) بال فى تعريفه الذى ذكرته ، وأول ما يتلقانا من الأسئلة هذا السؤال ، إذا كانت الواقعية نقلا مباشرا لصور الحياة التى تلمسها العين وتألفها النفس ، فما فائدة هذا النقل إذن ؟ وما فائدة تلك الصورة (المقلدة) للواقع ما دمنا نستطيع النظر إلى الأصل نفسه ؟ بل ، ما فائدة الفن إذا كان نقلا مباشرا لما تألفه النفس وتلمسه العين ؟ ...

يقول أفلاطون : إن عناية الرجل العاقل تنصب فى الوصول إلى الحقيقة ، لذا كانت عنايتنا بالأشياء ، لأنها ممثلة للحقيقة. وتكتسب هذه الأشياء حقيقتها من الأفكار التى تمثلها . فالمصور يقلد (٥) الأشياء ، والأشياء بدورها تمثل الأفكار ، والأفكار هى الحقيقة ، فيكون اتصال الفنان المصور بالحقيقة اتصالا بعيدا عنها بثلاثة مراتب . ولما كان الشاعر يقلد أعمال الناس وظواهر الأمور فعمله هذا بعيد عن الحقيقة بمرتبتين ، فالفن إذن — على هذا الرأى — ضرب من العبث ما دام يبعدنا عن الحقيقة ، والرجل العاقل لا ينشد ذلك . ولو كان الفن — والأدب — تقليدا للطبيعة حقا ، أو هو نقل مباشر لها ، لتقبلنا رأى أفلاطون وسكتنا ، ولتقبلنا رأى الأستاذ العداوى وصمتنا ، ولكن الفن ليس تقليدا للطبيعة فقط ، كما أنه ليس نقلا مباشرا فقط . إنما يتدخل الخيال وتلج المهارة الفنية فى ذلك الميدان لترفعه من حضيض التقليد الأعمى إلى قمة الخلق والإبداع ، وتقليد ما يتصوره الخيال ، فيكون عمل الخيال — هنا — لا يعدو مجرد تقطير الأحداث الواقعية باستبعاد جميع نواحيها السخيفة . ولكن هذا وحده — كما يقول لاسل آبركرمبى — كاف لأن يجعل الشعر (الأدب) الناتج عن هذا شيئا مخالفا لتلك الصورة المنسوخة التى توهمها أفلاطون نفسه ، وجعلها سببا للطعن فى الشعر (٦) ، ونضيف نحن أيضا أن تقطير الأحداث الواقعية بواسطة الخيال كفيل لأن يكون لنا شيئا مخالفا لتلك الصورة التى ننقلها نقلا مباشرا من الواقع والتى يراها الأستاذ العداوى مادة للواقعيين

ولو سلمنا أن الفن تقليد للطبيعة أو نقل مباشر لصور الحياة أو أن الفن مرآة للواقع؛ كنا بذلك قد ابتعدنا عن الحقيقة بمرتبتين أو ثلاثة — كما يقول أفلاطون — إنما الفن دفعة من النور تكشف لا عن مظاهر الحياة التى تألفها النفس وتلمسها العين ؛ ولكن عن خفايا تلك المظاهر ؛ عما وراء المظاهر ، فظواهر الأمور كثيرا ما تخفى شيئا (وسما) للفن ، فالحزن فى صورته الظاهرة تقطيب الوجه وتقارب الحاجبين مثلا ، ولكن هل هذا هو كل الحزن الذى نشعر به ؟ ! . . . كلا . . . باستطاعة أى إنسان أن يقطب وجهه ويقرب حاجبيه ، ولكن هل يشعر هذا (الممثل) شعور ذلك المفجوع المكلوم ؟!... على هذا ، فهل من الإنصاف أن نقصف الظاهر (الآلى) ونعرض عن تلك (الحرقة الأليمة) التى هى فى الحق مشاعرنا التى تنتابنا

والأدب كما يقول (كرمبى) توصيل (Communication)

---

(٤) الفنان يرى ويحس ويعبر تعبيرا مؤثرا ، أما الرجل العادى فيرى ويحس ، ولعله لا يرى ولا يحس ، ولكنه فى كلتا الحالتين لا يعبر

(٥) نلاحظ هنا كيف يستغل أفلاطون تعريف الفن (بأنه مقلد للطبيعة) ليتسنى له الطعن فى الشعر ، ونحن نذهب برأيه إلى الطعن بالفن كله إذا كان تقليداً أعمى للطبيعة ، أو إذا كان نقلا مباشراً كما يقول الأستاذ العداوى ! ...

(٦) قواعد النقد الأدبى — لاسل آبركرمبى — ترجمة الدكتور محمد عوض محمد

يحدث بين المؤلف والقارئ ، يعرض المؤلف أدبه بوصف مشاعره وإحساساته وتبيان أثرها فى نفسه ، وهذه الأصداء النفسية هى التى تمثل (الذاتية) الأس الأكبر للرومانتيكية الابتداعية ، ولكن الأدب ليس كل ذلك ، إنما يراد للتوصيل أن يلج المؤلف ساحة أخرى هى (الموضوعية) وبذلك يرضى قارئه حتى يتقبل ذلك الأدب ، وحتى يتم ذلك التوصيل . والموضوعية كما نعلم — تحاضر الواقعية — وبذا تكون لنا فى الأدب جانبان هما الموضوعية والذاتية (ولكن كل منهما على حده لا يعبر عن الحقيقة) لذا نرى أن على الأديب الواقعى الفنان أن يلتزم هذين الجانبين فى أدبه ولا يهمل (الذاتية) فى نقل الواقع فيحيد نقله محايدا (إن صح وجود النقل المحايد فى الأدب .. ذلك لأن الإدراك نفسه غير محايد كما تقول نظرية الكاتب الفرنسى الوجودى سارتر)

فالواقعية الفنية تتمثل بالجانب الذاتى والموضوعى ، كما تتمثل بالعناية بوساطة الأدب (اللغة) وعنايتها باللغة تتم من طريق معرفة المفردات وما توحيه كل لفظة من صور ومعان ، وما تحدثه من جرس

ومن أدب الواقعية الفنية قصة (آلام) للكاتب الروسى مكسيم غوركى و (قصة أنا كارنينا) للفيلسوف الروسى (ليونواستوى) وقصة (تس سليلة دربرفيل) للشاعر القاص توماس هاردى ، وتحفة فلوبير الخالدة (مدام بوفارى) ، كما نجد الواقعية العنيفة تتجلى فى كتاب (الأيام) للدكتور طه حسين ، وكتاب (عصفور من الشرق) للأستاذ توفيق الحكيم . ومن قرأ هذا الفصل لا يستطيع إنكار الخصائص الفنية التى ذكرناها عن الأدب الواقعى الفنى

ولعل قصيدة هوسمان الشاعر الإنجليزى (إلى السوق أول مرة) (٧) خير مثال للواقعية التى ذهبنا إليها ، فلذا رأينا أن نعرضها لزيادة الإيضاح :

— يوم أنشأت أذهب إلى السوق ، أوائل عهدى بالأسواق
كانت الدراهم فى الكيس جد قليلة
وكم طال بى النظر وكم طال بى الوقوف !
على أشياء فى السوق لا تنال
— تغير الزمن اليوم ، ولو أردت الشراء لاشتريت
هنا الدراهم فى الكيس ، وهناك أشياء الأمس فى السوق
ولكن يا ترى ذلك الفتى المحروم ؟
— طالما شكا قلب الإنسان لأن (اثنين واثنين أربعة)
لا هى ثلاثة كما نودها حيناً ولا هى خمسة كما نودها بعد حين
وأحسبه سيشكو إلى آخر الزمان
هذه صورة من الواقع ، ولكن هل هى نقل مباشر لصور

° ° °

الحياة ... مما تلمسه العين وتألفه النفس ؟ هل هذه الصورة التى نقلها هوسمان هى صورة الواقع المحس فقط ؟ . ألم يضف هوسمان شعوره وعواطفه وآماله التى سرعان ما تتبدل وتتغير ؟ ...

لقد صور لنا هوسمان الواقع المحس ونقل إلينا أحاسيسه ومشاعره نقلا فنيا من الصعب — بل من الصعب جداً — أن نتكر ذلك الواقع الفنى الذى نقله هوسمان

العراق . بصرة — محمود عبد الوهاب

(٧) الكتاب . السنة الأولى ج ٦ ص ٨٥٤

مطبوعات المجمع العراقى

تاريخ العرب قبل الاسلام

أوسع كتاب فى تاريخ العرب قبل الإسلام
جمع من الكتابات العربية الجاهلية ومن
النصوص الكلاسية والتوراة والتلمود

تأليف الدكتور

جواد على

طبع عام ١٩٥١